خطبة ، بعنوان: الرسول المعلم (ﷺ)

المعلم الأعظم (ﷺ) منبع الإلهام المتجدد للمربين والمعلمين

قصة تربوية ملهمة

قراءة في استراتيجيات النبي التربوية والتعليمية

ابتكارات نبوية سبقت العالم وما تزال في طرائق التعليم

بقلم الدكتور/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

الجمعة: ٢٧ ربيع الأول ١٤٤٧هـ ١٩ سبتمبر ٢٠٢٥م

صفحة معارج الدعاة - موقع صوت الدعاة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً (ﷺ) عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان، الأشراف الأنوران، الأعطران الأزهران، المزهرة المثمران، على من جمعت كل الكمالات فيه.. وعلى آله وصحبه وتابعيه. اللهم صل صلاة كاملة، وسلم سلاماً تاماً، على نبي تنحل به العقد، وتنفرج به الكرب، وتقضى به الحوائج، وتنال به الرغائب، وحسن الخواتيم، ويستسقى الغمام بوجهه الكريم، وعلى آله الطاهرين، وصحبه الطيبين، وسلم تسليمًا كثيرًا... اللهم آمين يا رب العالمين.

فَمَبْلَغُ الْعَالَمِ فِيهِ أَنَّهُ بِشَرِّ... وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ

مولاي صل وسلم دائماً أبداً... على حبيبك خير الخلق كلهم

اللهم رضه عنا، وارض عنا، برضاه عنا.. ووضنا بأخلاقه العظيمة، وحقق أمانينا بزيارته، وافتح لنا أبواب

رؤيته، ونيل شفاعته، اللهم آمين يا رب العالمين...

أيها المسلمون: أوصيكم ونفسي المقصرة بتقوى الله، فإنها وصية الله للأولين والآخرين، قال تعالى: (... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ... (النساء: ١٣١)، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (آل عمران: ١٠٢)، وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (الأحزاب: ٧٠-٧١). وقال تعالى: (...وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (البقرة: ٢٢٣).
فاللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وهدى وتقى وصلاً، واجعلنا من أهل العلم العاملين، وارزقنا الإخلاص في القول والعمل، إنك سميع قريب مجيب...
أما بعد،،،

المعلم الأعظم ﷺ وإهام متجدد للأجيال والمعلمين

كان رسول الله ﷺ المعلم الأول لهذه الأمة، يعلم بالقول والفعل، وبالقدوة والرحمة، حتى شهد له ربه فقال: **وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)** (التوبة: ١٢٨).

لقد جسّد النبي (ﷺ) أسمى معاني التربية والتعليم؛ فعلم الناس:

- كيف يعبدون الله،
 - وكيف يتعاملون مع بعضهم،
 - وكيف يتعاملون من خلق الله
 - وكيف يعمرّون الأرض ويرقون الحياة بالخير والعدل.
 - وكما علمهم كيف يعمرّون دنياهم، علمهم كيف يعمرّون أخراهم.
- وكان تعليمه ممتزجاً بالرحمة، محاطاً بالحكمة، مقرونًا بالصبر والرفق.
- فهو مصدر إهام خالد لكل معلم ومربّ، يرشدهم إلى أن رسالتهم ليست مهنةً تؤدّي فحسب، بل عبادة ورسالة، وتربية وصناعة أجيال، ونهضة أمم.
- وقبل أن نتحدث عن النبي المعلم، فمهّد للموضوع بتمهيد لازم على النحو التالي:

العلم في الإسلام

نور العقول، وعماد العمران، وباني الحضارات

كم من أمم نهضت بالعلم فارتفعت، وكم من أمم تقدّمت بالمعرفة فتفوّقت، وكم من أمم تخلّفت بالجهل فتقهقرت، وسادها الظلام وحلت بها الأوبئة والأمراض!.

أيها المؤمنون: أقولها بكل صراحة وجلاء ووضوح:

- من أراد التفوق والنهوض والازدهار والفاعلية والتأثير في الدنيا فعليه بالعلم
- ومن أراد النجاح والنجاة في الآخرة فعليه بالعلم
- ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم.

لقد **رفع الإسلام مكانة العلم، وأقام عليه حضارته، وفتح به أبواب النور للبشرية**، حتى كان أول ما نزل من الوحي الشريف المعصوم كلمة: **(اقْرَأْ)** في قوله تعالى: **(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)** (العلق: ١).
وكأن رسالة الإسلام جاءت لتقول للعالم: لن تكون لكم حياة حقيقية إلا بالعلم، ولن تكون لكم مكانة إلا بالمعرفة، ولن تكون لكم قيادة إلا بتوظيف العلم لخدمة الإنسان والأديان والأوطان، وترقية الحياة.
قال تعالى: **(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۗ...)** (المجادلة: ١١).

وقال تعالى: **(... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...)** (الزمر: ٩) .
 بل أمر الله نبيه (ﷺ) أن يستزيد من العلم فقال: **(... وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)** (طه: ١١٤) .
 تأملوا هذا النداء الرباني العجيب، الله (سبحانه وتعالى) يخاطب به نبيه الكريم (ﷺ) فيقول: **(... وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)**

إنه أمرٌ صريحٌ من الله تعالى لنبيه أن يسأل المزيد من العلم، وهو الذي أوتي جوامع الكلم، وأعطى من الفهم ما لم يُعط أحد من العالمين.

أي شرفٍ أعظم من أن يكون العلم هو الميدان الوحيد الذي طُلب من النبي (ﷺ) أن يستزيد منه؟!
 ويا لها من رسالة بليغة: أن العلم لا ينقطع، وأن طالب العلم لا يقف عند حدٍ، ولو بلغ الذروة في الفضل والرفعة. فالقلوب لا تحيا إلا بنوره، والعبادات لا تستقيم إلا بضبطه، والحياة لا تتطور ولا تتقدم ولا تُثمر إلا بالبراعة فيه ونقل نتائجه ومخرجاته من ساحات البحث إلى ساحات العمل والإنتاج، والعلم أيضا هو البصيرة التي تعصم من الزلل، والسبيل إلى الرفعة في الدنيا والآخرة.

ولئن أمرنا الله بالإكثار من الذكر، وبالدوام على الاستغفار، وبالاجتهاد في القيام والصلوات والعبادات، فإن صيغة الزيادة جاءت صريحة في العلم؛ ليبقى ذلك شاهداً على منزلته السامية، ومكانته العظيمة.
 وهكذا فإن العلم في الإسلام ليس ترفاً فكرياً، بل هو حياة القلوب، ونور البصائر، وقوة الأمة، مصدر تقدمها وسلاحها في مواجهة التحديات.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "العلم: حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس النفوس، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، مذاكرته تسيخ، والبحث عنه جهادٌ، وطلبه قربةٌ، وبذله صدقةٌ، ومدارسته عبادةٌ، والحاجة إليه أعظم من الحاجة إلى الشراب والطعام".

ولذا، ما من حضارة قامت إلا وكان العلم أساسها، ولا أمة نهضت إلا وكان العلم عمادها.
 فقامت الحضارة الإسلامية بالأمس على نور العلم فأنارت الدنيا قروناً طويلة، ولما خمد نور العلم خمدت معها حضارات، وضاعت أمم، وساد الجهل والظلام.

فالعلم والبحث والتعليم والتعلم والوعى والإبداع والابتكار والاختراع، والتنقيب العلمي، والتحقيق، والتنقيب، والاستكشاف، والتحليل، والانفتاح المعرفي، التميز، والابتكار، والتفرد، والتطوير، والتجديد، والإلهام، والإتقان، والروعة، والبراعة، والإبداع التطبيقي، والاستحداث، والإبداع العلمي، والحداثة، وإحداث الجديد، والاكتشاف التطبيقي، والإنشاء، والاستحداث، والتوليد، والإتيان بما لم يسبق، والإبداع الصناعي، والنحت الجديد، والاكتشاف العملي، كل ما سبق وغيره هو أساس التقدم والإبداع، ولن يكون إلا بالعلم...

فليكن شعار المؤمن في حياته على الدوام ما علمه ربه: **(... رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)** .

فضل العلماء:

لقد رفع الله مكانة أهل العلم، فقال سبحانه: **(يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...)**

(المجادلة: ١١) .

وقال جل شأنه: **(... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...)** (الزمر: ٩) .

وقال: **(... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** (البقرة: ٢٨٢) .

وقال تعالى: **(... نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ ۖ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)** (يوسف: ٧٦) .

ولقد بين النبي (ﷺ) فضل العلماء بيانا عظيما، في أحاديث كثيرة، منها:
 فقال (ﷺ): (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ
 أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحَيَاتَانِ فِي جَوْفِ
 الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ،
 وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ) (١).
 فأى منزلة أرفع، وأي وسام أشرف، من أن يكون العلماء ورثة النبوة، وحملة الميراث الشريف!؟

خطر نقد العلماء:

العلماء هم مصايح الدجى، وسفن النجاة، وحصون الأمة، وموت العالم ثلثة في الإسلام لا تُسد.
 قال النبي (ﷺ): (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ،
 حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) (٢).
 بين النبي (ﷺ) في هذا الحديث أن ذهاب العلم لا يكون بانتزاعه من القلوب فجأة، وإنما بقبض العلماء،
 فإذا غابوا انقطع نور الهداية شيئا فشيئا، حتى يتصدر الجهال فيفتون ويقودون بغير علم، فيضلون ويضلون. وهذه
 رسالة عظيمة للأمة: أن بقاء العلم مرهون بصناعة العلماء، وأن من واجبها أن تخرج أجيالا من أهل العلم في كل
 مجال؛ في علوم الدين التي تحفظ الإيمان والهوية، وفي علوم الدنيا التي تعمّر الأرض وتنهض بالحياة. فالأمة التي لا
 تُخرج علماءها تترك فراغا يملؤه الجهل والاضطراب، أما الأمة التي تصنع العقول وتغرس فيها حب العلم، فهي الأمة
 التي تملك بقاءها وريادتها.

العلم عبادة وهداية

العلم في الإسلام عبادة وهداية، وبه صلاح الفرد ونهضة الأمة وعز الإسلام. ولم يكن عجباً أن يكون دعاء
 النبي (ﷺ) كل صباح: فعن أم سلمة (رضي الله عنها) أنها قالت: كان النبي (ﷺ) يقول بعد صلاة الفجر (اللهم
 إني أسألك رزقا طيبا وعلما نافعا وعملا متقبلا) (٣). لقد افتتح رسول الله (ﷺ) يومه بالدعاء بالعلم النافع، ليعلم
 الأمة أن أول ما يطلبه المؤمن مع إشراقة الصباح هو نور العلم، لأنه أصل الهداية، ومفتاح البركة، ومنبع العمل
 الصالح.

فلنجدد نيانتنا في طلب العلم، ولنقرن العلم بالعمل والتقوى؛ فإن العلم بلا عمل، وبلا إخلاص، وبلا خشية، لا
 ينفع. وقد كان (ﷺ) يستعيد بربه قائلا: (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يشع ومن نفس لا
 تشع ومن دعاء لا يسمع) (٤).

فقه الدين فريضة:

جعل الله (سبحانه وتعالى) التفقه في الدين فريضة كفاية على الأمة، إذا قام بها البعض سقط الحرج عن الباقين،
 فقال سبحانه وتعالى: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
 وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (التوبة: ١٢٢).

(١) أخرجه الإمامان: أبو داود، وابن ماجه.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد - رجاله ثقات.

(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب - إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما.

وقد جاءت كلمة "نَفَر" بديعةً البيان، عميقة الدلالة؛ فهي لا تعني مجرد الخروج أو الانتقال، بل تفيد الحركة القويّة، والانبعاث السريع، والهمة العالية، كأنها نفرةً للمجاهد إلى ميدان القتال. وفي هذا تصوير بليغ لطلب العلم بأنه جهادٌ من نوع آخر، يحتاج إلى عزيمةٍ وتشميرٍ وبذل جهد، تمامًا كما يُبذل في ميادين الجهاد بالسيف.

ولم يقل ربنا: خرج أو ذهب أو سار؛ لأن هذه الألفاظ توحي بمجرد الحركة أو السير، أما النفير فيوحي بالقوة والجدية والجماعية والغاية العظمى، مما يجعل التفقه في الدين سفرًا مباركًا، ورحلةً جهادية، ينهض بها العلماء جنودًا للفكر والإيمان، لا يقلّ أثرهم شرفًا وخطورة عن أثر المجاهدين في ميادين القتال.

يقول السعدي (رحمه الله) في تفسيره لهذه الآية الكريمة: " (لِيَتَفَقَّهُوا) أي: القاعدون (في الدين وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ) أي. ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارها، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم. ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصا الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علما، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره، الذي ينمى له. وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأبي منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علما ومنحه فهما. وفي هذه الآية أيضا دليل وإرشاد وتببيه لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، وكهاية ما يقصدون قصدا واحدا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور "

ومما يعزّز أهمية السعي في طلب العلم في كل اتجاه، وفي كل سن، وفي كل حال، أن الله تعالى يذكّرنا بأصلنا وضعفنا، إذ قال سبحانه: **(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** (النحل: ٧٨).

فالإنسان يولد صفحةً بيضاء، ثم لا يزال في حاجة إلى العلم ما دام حيًّا، ومهما بلغ في مدارج المعرفة. ومن ظنّ أنه قد استغنى فقد ضلّ ضلالاً مبيناً؛ إذ علمُ البشر ناقصٌ ومنقوص، قليلٌ وضيعٌ، أمام علم الله تعالى الكامل الشامل المحيط الأزلي الأبدي السرمدي الباقي، كما قال (عزّ وجلّ): **(... وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)** (الإسراء: ٨٥)، وقال سبحانه مؤكداً عظمة علمه العظيم الذي لا ينفد: **(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِائِهِ مِدادًا)** (الكهف: ١٠٩).

العلم والبحث والتعليم والترجمة

في الحضارة الإسلامية^(٥)

وإذا كانت الحضارة لا تقوم إلا بالعلم فإن الإسلام قد جعل العلم فريضة لا تقل شأنًا عن فرائض الصلاة والصوم والزكاة، وجعل مداد العلماء مساويا لدماء الشهداء، ووصف العلماء بأنهم أخشى الناس لله، لأنهم الذين يدركون أسرار الخلق وجلال الخالق. وإذا كان الإسلام دين العلم والحضارة على النحو الذي أشرنا إليه فكيف وصل الحال بالمسلمين إلى أن تكون نسبة الأمية لديهم تصل إلى ٤٦,٥٪ طبقاً لبيانات المنظمة الإسلامية للتربية

(٥) راجع: د/ أحمد علي سليمان: البحث العلمي في العالم العربي: نحو رؤية منهجية لعلاج مشكلاته وتحقيق جودته، القاهرة: مجلة الجامعة الإسلامية، تصدرها رابطة الجامعات الإسلامية، العدد ٤٨، ١٤٣٦هـ / ٢٠١٤م، ص ٩٧-١٥٦.

والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، وأن تصل هذه النسبة في أوساط النساء في بعض البلاد الإسلامية إلى ٦٠٪. وبعده العلم بصفة عامة سلاح العصر، فمن يملك العلم يملك القوة، ومن يملك القوة يستطيع أن يفرض نفسه في عالم اليوم. أما الدول التي لا تملك العلم فإنها تقنع بأن تكون تابعة ومستهلكة لمنتجات الآخرين، (وزبونا دائماً في "سوبر ماركت" الأقوياء).

وإذا نظرنا إلى موقف الإسلام من العلم وتطوراته - وهذا الموقف الديني ينبغي أن يكون له تأثيره على توجهات المسلمين - فإننا نجد أن الإسلام ينفرد بين الأديان المختلفة ويمتاز بجعله العلم فريضة من فرائض الإسلام، لا تقل في أهميتها عن فرائض الصوم والصلاة والزكاة كما سبق؛ لأن العلم هو السبيل إلى إعمار الكون. وإعمار الكون في الإسلام يعد من الأوامر الإلهية التي ينبغي تليتها على المستويين المادي والمعنوي، كما جاء في القرآن الكريم: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود: ٦١)، أي: طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها.

والإسلام بذلك يساند العلم ويدعم مسيرته. ولا يمكن أن يكون هناك تعارض بين الإسلام وحقائق العلم بأي شكل من الأشكال. ومجال العلم في الإسلام غير محدود، فهو يشمل السماء والأرض وما بينهما. فليس هناك قيود ولا سدود في الإسلام تقف في طريق التقدم العلمي مادام ذلك في مصلحة الإنسان، وهذه المصلحة تحوطها القيم الأخلاقية بسياج يحميها من سوء الاستغلال. وكل تقدم علمي هو في الوقت نفسه دعم للدين من المنظور الإسلامي لأنه يبين قدرة الخالق. ومن أجل ذلك أكد القرآن على أن العلماء هم أخشى الناس لله لأنهم أقدر الناس على معرفة أسرار الخالق وجلال الخالق^(٦) ومن ثم كان اهتمام المسلمين بالتقدم العلمي من صميم العقيدة الإسلامية.. وترتب على هذه الرؤية أن كان العلم والبحث العلمي مكوناً أصيلاً من مكونات الحضارة الإسلامية في عصورها الزاهرة؛ لأنهم أيقنوا أنه بالعلم تزدهر الحضارات وبه تُبنى الأمم ما دام هذا العلم منطلقاً من ثوابت تسعى إلى تحقيق مصلحة الإنسان وعمارة الكون..

فآيات القرآن الكريم التي تحض على البحث والتقصي والتدبر والتفكير في ملكوت الله وفي آيات الله الكونية (كتاب الله المنظور "الكون")، وفي آيات الله التشريعية (كتاب الله المسطور "القرآن الكريم") من الكثرة والشمولية بمكان، ولناخذ لذلك بعض الأمثلة، قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: ١٦٤)، وقال: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ. رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ. رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) (آل عمران: ١٩٠-١٩٤)، وقال سبحانه: (قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... (يونس: ١٠١)، وقال تعالى مستحثاً المسلمين على أعمال العقل والتفكير العميق: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا... (الروم: ٤٢)، (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا... (الأنعام: ١١)، (... لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الأعراف: ١٧٦)، (... لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) (يوسف: ٤٦)، (... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (إبراهيم: ٢٥)، (... لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) (الأنبياء: ٣١)، (... لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) (الأنبياء: ٦١)، ولقد عاتب الله عز وجل الذين لا يعملون عقولهم، ولم يكتف بذلك بل شبههم بالأنعام، بل هم أضل وفي ذلك يقول تعالى: (هَلْمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهَلْمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهَلْمْ آذَانٌ

(٦) د. محمود حمدي زقزوق: الحضارة فريضة إسلامية، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠١، ص ٢٤، د. محمود حمدي زقزوق: التحديات التي تواجه الإسلام / في العصر الحديث.

لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أَوْلَئِكَ هُمُ الْعَافُونَ... (الأعراف: ١٧٩) ... وغيرها كثير، مما يبرهن على اهتمام الإسلام بالعلم والبحث والتقصي والتنقيب والتفكير العميق للوصول إلى الحقيقة.. ولقد قاسمت السنة النبوية الشريفة (القولية والتطبيقية) القرآن الكريم في الاهتمام بالعلم والبحث والتفكير، وأيضا الشورى التي تعد واحدة من نتاج التفكير العميق، والتي تؤكد على احترام القائد الأعلى لعقول أصحابه وآرائهم..

بل جعل النبي (ﷺ) العالم أفضل من العابد؛ لقوله عليه السلام: (فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب)، وما ذلك إلا لأن العلم نفعه متعدد والعبادة نفعها قاصر... والزائد في العباد نافلة، أما العلم إما فرض عين أو فرض كفاية... وفي علم الحديث أن العالم إن أرسل لك فقد كفاك بثقته وعلمه وإن أسند لك فقد أحالك للبحث عن أحوال من سماه لك.

اهتمام النبي العظيم باللغات والترجمة:

وكان اهتمامه (ﷺ) بالترجمة والعناية باللغات الأخرى والبراعة فيها للبحث والتفتيش عن النافع فيما عند الآخرين انطلاقا من (الحكمة ضالة المؤمن أي وجدها فهو أولي بها)، دليل تحضر للعقل المسلم في وقت مبكر من تاريخ الإنسانية..

إن تعلم اللغات الأجنبية في الإسلام من فروض الكفايات على المسلمين. ولقد كان النبي (ﷺ) يذهب للتفاوض مع اليهود فكانوا يكتبون ويتكلمون مع بعضهم البعض بلغتهم السريانية، والنبي (ﷺ) جالس بينهم ولا يعلم ما يكتبون وما يقولون، فاختار نابغة من النوابع من رجال المسلمين، حاد الذكاء، حاد الذاكرة، هو زيد بن ثابت (رضي الله عنه)، وقال له: أريد أن تتعلم لغة يهود. فجلس عندهم - كما قيل - سبعة عشر يوما، فأجاد اللغة السريانية تماما، وكان يجلس إلى جوار النبي (ﷺ) ويترجم له ما يقوله اليهود. وكان يجلس حوله (ﷺ) أيضا من يجيد اللغة الحبشية، ومن يجيد اللغة الرومية، ومن يجيد اللغة الفارسية.. وغيرها؛ ليتمكن من نشر رسالته العالمية للدنيا كلها.. ولقد سار أصحابه الكرام ومن جاء من بعدهم على نهجه المبارك وعلى دربه الميمون، وورد عنهم: (من تعلم لغة قوم أمن مكرهم)؛ ذلك أن الترجمة هي من آليات نقل العلوم والبحوث والمعارف والخبرات والثقافات وتداولها بين أجناس البشر، وهي الآلية الأساسية في الحوار بين أهل الحضارات.. كما تساعدنا على قراءة واقع الآخر قراءة دقيقة وموضوعية^(٧).

لقد حققت الترجمة منذ قديم الزمان تفاعلا حضارياً وثقافياً أدى إلى التقارب والتآلف بين الناس، وأدت إلى نجاة كثير من الشعوب من أخطار الصراعات والحروب؛ لذلك بذل حكام المسلمين قديماً الغالي والنفيس من أجل الترجمة.. فالخليفة المأمون العباسي -مثلا- أغدق في البذل والعطاء على عملية الترجمة، فكان يُعطي وزن الكتاب المترجم ذهباً لمترجمه تقديراً له وتحفيزاً لغيره على خوض هذا الميدان المهم..

إن عملية الترجمة التي قام بها العرب الأجداد تعطينا درساً مهماً في مدى وعي الحكام الأول بأهمية هذه القضية، وكيفية إنفاقهم الأموال على العلم والبحث العلمي والترجمة، واختيارهم أيضاً المحتوى العلمي النافع الذي يترجمونه سواء من اللغات الأخرى إلى لغتهم، أو من لغتهم إلى اللغات الأخرى، والذي من شأنه أن يحقق فائدة المجتمع المسلم، وفائدة الإنسانية على حد سواء..

لذلك لما أرادت أوروبا الخروج من عصورها المظلمة إلى عصر نهضتها التي نرى ثمارها اليوم، أقبلت على القيام بعملية الترجمة الكبرى، فقامت بنقل كتب العلوم والطب والرياضيات من العربية إلى لغتها القومية. لقد أقبلوا على ما هو عام للإنسانية من نصوص العلم العربي، فصارت مراكز الترجمة في صقلية وباليرمو وأسبانيا تهتم بنقل الأعمال

العلمية التي أنجزها العلماء العرب والتي تعينهم على النهضة وعلى التواصل مع المسيرة التراكمية للعلم، تاركين ترجمة التراث الأدبي العربي، ومن ثم خرجوا بذلك من مأزق الذوبان في ثقافة العرب وتراثهم الديني والأدبي. وللأسف كان خطأنا الأكبر حين بدأنا نترجم عن الغرب تراثه الأدبي، تاركين ترجمة العلوم التطبيقية التي تمنا في المقام الأول، فكانت النتيجة هي الذوبان في ثقافة الآخر العربي، وابتعدنا عما هو إنساني عام من إنتاج الغرب، فتأخرنا عن ركب الحضارة.^(٨) وهكذا فامة الإسلام لا تبالي من أي وعاء خرجت المعرفة النافعة؛ لأن ديننا علمنا أن نسعي بأقصى قدر ممكن لأن نستقرأ ما أنتجه الآخرون في صنوف العلوم المختلفة؛ للاستفادة بما توصلوا إليه، والإكمال عليه، والإبداع في غيره وإفادة الآخرين منه، الأمر الذي يدفع العلوم والمعارف والفنون والآداب نحو النمو والتطور والرقي لخدمة الإنسانية جمعاء...

البعد الإنساني والشمولي والاختصاصي للعلم في الإسلام:

يمتاز الإسلام بأنه يضيف للأبحاث العلمية بُعداً إنسانياً؛ حيث يُعطي الباحثين مكانة عالية؛ كونهم يقومون بخدمة الإنسان بني الإنسان أيّاً كان دينه أو اتجاهه، بل كلما كان العلم أنفع؛ كانت درجة محبة الله للباحث أكثر، ف"الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله". ومن ثم فإن الباحث لن يستخدم علمه في الإضرار بالآخرين، أو التسلب والتجبر عليهم، فالوسيلة بين العالم والمتعلم: الود الحوار، وليس التعالي أو الاحتقار. وفي ذلك يقول الله تعالى: (...يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...) (المجادلة: ١١)، كما أن العلم في الإسلام شمولي فعندما نقرأ قوله تعالى: (...فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النحل: ٤٣) ندرك كم هي مكانة أهل الاختصاص في كل المجالات، فمن الواجب الديني سؤالهم واستشارتهم.

ولقد عدت آيات أخرى بعض أنواع أهل الاختصاص، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) (فاطر: ٢٧-٢٨) وهاتان الآياتان تطلبان من المسلمين أن يكون من بينهم علماء متخصصون في المجالات المذكورة في نص الآيات، وبالقياس في سائر المجالات التي تسهم في عمارة الكون والبناء الحضاري للإنسانية.. والمطلوب وجود شتى الاختصاصات العلمية:

- الثروة الفضائية من خلال ما تحويه السماء.
- الثروة المائية.
- الثروة الطبيعية؛ وعلى سبيل المثال: الجبال.
- الموارد البشرية والناس.
- وسائل النقل.
- الثروة الحيوانية.

هو الأساس في تحقيق الكفاية الذاتية، وتحقيق الوفرة الجماعية^(٩).

مكانة المعلم:

رسالة المعلم أشرف وظيفة في هذه الحياة، ويكفي أنها وظيفة الأنبياء والمرسلين، وقد اختار الله تعالى خير خلق الله ليكونوا رسلا يبلغون رسالات الله للعالمين...

(٨) راجع ذلك مفصلاً في كتاب: أمة تدعو إلى الخير: لأستاذنا الدكتور محمد سيد محمد (رحمه الله)، نشر رابطة الجامعات الإسلامية - سلسلة فكر المواجهة عدد ٢٤ سنة ٢٠٠٨م، ص ١٧١ بتصرف.

(٩) علاء الدين زعتري: محور عملية التنمية وأساس النهوض الاقتصادي: البحث العلمي، <http://www.alzatari.net/research/>، ٩٩٤٤.html.

تاريخ الاطلاع على الوثيقة ١٩/٨/٢٠١٤م.

وإذا كان الله تعالى قد اختار أفضل خلقه ليكونوا رسلا ومعلمين، فيجب علينا أن نختار أفضل العناصر لمهمة التعليم، ففي عصر تتقاذفه الأمواج، وتحيط بنا الرياح والعواصف والتحديات من كل مكان، فيجب أن نهتم بالعلم والبحث والتعليم، ليكون لنا كلمة وموقعًا في هذه الحياة... ولما كان المعلم هو حجز الزاوية والأساس لأي عملية تربوية أو تعليمية ناجحة، فيجب أن يحظى بالرعاية والعناية والتكريم والتحفيز والتشجيع، ولنا في سيدنا رسول الله الأسوة والقُدوة والمثال والنبراس في الاهتمام بالعنصر البشري القائم بالتعليم....

الرسول المعلم (ﷺ) (١٠)

نص القرآن الكريم على كون الرسول (ﷺ) مُعَلِّمًا ، فهو معلم للناس والبشرية جميعًا، على أميته وصحراوية بيئته .

قال (عز وجل): **(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ (١١) رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (الجمعة: ٢).**

وقال تعالى : (وَأرسلناك للناس رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) (٢) .

وقال تعالى أيضاً: (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٣) .

إثبات السنة أن الرسول (ﷺ) معلم هاد بصير

لقد أثبتت السنة المطهرة أيضاً أن رسول الله (ﷺ) معلم هاد بصير .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قال: خرج رسول الله (ﷺ) ذات يوم من بعض حُجْرِهِ فدخل المسجد فإذا هو بحلقتين إحداهما يقرؤون القرآن ويدعون الله والأخرى يتعلمون ويعلمون فقال النبي (ﷺ) كل على خير، هؤلاء يقرؤون القرآن ويدعون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بُعثت معلماً (١٢) .

وعن معاوية بن الحكم السلمي (رضي الله عنهما) بيانا أنا أصلي مع رسول الله (ﷺ)، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: وأكل أميأه، ما شأنكم؟ تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتموني لكتي سكت، فلما صلى رسول الله (ﷺ)، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله، ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: **(إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن)** (١٣) .

يحكي معاوية بن الحكم رضي الله عنه أنه بينما كان يصلي مع النبي (ﷺ) إذ عطس رجل في أثناء الصلاة، فقلت وأنا في الصلاة: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، أي: نظروا إلي إنكاراً وزجراً وتشديداً كما يرمى

(١٠) عبد الفتاح أبو غدة: الرسول المعلم (ﷺ) وأساليبه في التعليم، بيروت: دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص ١٤-٧ .

(١١) الأميون هم: العرب وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ، قال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...) (الأعراف: ١٥٨)، وقوله: (وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) (الأنعام: ١٩) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته (عليه الصلاة والسلام) إلى جميع الخلق.

(١٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩) واللفظ له، والبخاري (٢٤٥٨)، والطبراني (١٣ / ٥١) (١٢٥)، وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم)) (٢٤٢) بنحوه وأخرجه العراقي / المصدر: الباعث على الخلاص - له طرق يقوي بعضها بعضا.

(١٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

بالتَّهْم؛ كيلا أتكلَّم في الصَّلَاةِ، فقلتُ: واثكلُ أُمِّيَاءَ "والثُّكُل" فقدانُ المرأةِ ولدها، وحزنها عليه لفقده، والمعنى: وَافْقَدَهَا لي؛ فَإِنِّي هَلَكْتُ، ما شأنكم؟ أي: ما أمركم؟ تنظرون إليَّ نظرَ الغضبِ، فجعلوا، أي: شرعوا، يضربون بأيديهم على أفخاذهم، أي: زيادةً في الإنكار عليَّ، وهذا محمولٌ على أَنَّهُ كان قبل أن يُشْرَعَ التَّسْبِيحُ لِمَنْ نابَهُ شيءٌ في صلاته للرجال، والتَّصْفِيقُ للنساءِ، يُصَمِّتُونِي، أي: يُسَكِّتُونِي، يعني: يأمروني بالصَّمتِ والسُّكوتِ ويُشيرون إليَّ، لكنِّي سَكْتُ، فلَمَّا صَلَّى رسولُ اللهِ (ﷺ)، أي: فرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ، فبِأبي هو وأُمِّي، أي: فِدَاهُ أَبِي وَأُمِّي، ما رأيتُ مُعلِّمًا قبله ولا بعده أَحَسَنَ تعليمًا منه، أي: اشتغل بتعليمي بالرفق وحُسن الكلام؛ فوالله ما كَهَرَنِي، أي: ما انتَهَرَنِي وزجرَنِي، أو ما استقبلني بوجهِ عبوسٍ، ولا ضَرَبَنِي ولا شَتَمَنِي، أي: ما أغلَطَ لي في القولِ، فقال (ﷺ): إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ، أي: جنسَ الصَّلَاةِ، فيشملُ الفرائضَ وغيرها، لا يصلحُ، أي: لا يحلُّ فيها شيءٌ من كلامِ النَّاسِ، أي: ما يجري في مُحَاطَبَتِهِمْ ومُحَاوَرَتِهِمْ، إِنَّمَا هِيَ، أي: الصَّلَاةُ، التَّسْبِيحُ والتَّكْبِيرُ وقراءةُ القرآنِ. ويحكى معاويةُ بنُ الحَكَمِ رضَى اللهُ عنه، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إِنِّي حديثُ عهدٍ بجاهليَّةٍ، وما قبل ورودِ الشَّرْعِ يُسَمَّى جاهليَّةً؛ لكثرة جهالاتهم وفحشها، يعني: انتقلتُ عن الكُفْرِ إلى الإسلامِ ولم أعرفُ بعدُ أحكامَ الدِّينِ، وقد جاءنا اللهُ بالإسلامِ، وإنَّ منَّا رجالًا يأتون الكُهَّانَ، جمعُ كاهنٍ، وهو من يتعاطى الأخبارَ عن الكوائنِ في المُستقبلِ، ويدعى معرفةَ الأسرارِ، فأجابه النَّبِيُّ (ﷺ) بألا يأتيهم، ثمَّ قال معاويةُ رضَى اللهُ عنه: ومنَّا رجالٌ يتطَيِّرونَ، و"التَّطَيُّرُ" هو التَّشَاؤُمُ بمرئٍ أو مسموعٍ، قال (ﷺ): ذاك، أي: التَّطَيُّرُ، شيءٌ يجدونه في صدورهم، أي: ليس له أصلٌ يُستندُ إليه، ولا له برهانٌ يُعتمدُ عليه، ولا هو في كتابٍ نازلٍ من لَدِيهِ، فلا يصدِّقهم، أي: لا يمنعونهم عمَّا هم فيه، ثمَّ قال معاويةُ رضَى اللهُ عنه: ومنَّا رجالٌ يخطُّونَ، يُشيرُ إلى عِلْمِ الرَّمْلِ والخطِّ عند العربِ، فقال (ﷺ): كان نبيٌّ من الأنبياءِ يخطُّ، فَمَنْ وافقَ فيما يخطُّه خطُّه، فذاك، أي: فهو المُصِيبُ، والمعنى: لو وافقَ خطُّ الرَّجُلِ خطُّ ذلك النَّبِيِّ فهو مُباحٌ، لكن لا سبيلَ إلى معرفةِ موافقته؛ فلا سبيلَ إلى العملِ بالخطِّ.

ثمَّ قال معاويةُ رضَى اللهُ عنه: وكانت لي جاريةٌ، أي: أمةٌ، ترعى غنمًا لي قبلَ أُحدٍ والجوانيةِ، وهي أرضٌ من عملِ الفروعِ من جهةِ المدينةِ، فاطلعتُ ذاتَ يومٍ فإذا الذِّئْبُ قد ذهب بشاةٍ من غنمها، وأنا رجلٌ من بني آدمٍ، آسفٌ كما يأسفونَ، أي: أغضبَ على الجاريةِ، أو أحزنَ على الشاةِ، لكنِّي صككتُها صكَّةً، أي: لطمتُها، فأتيتُ رسولَ اللهِ (ﷺ)، فعظَّم ذلك عليَّ، أي: كثر النَّبِيُّ (ﷺ) ذلك الأمرَ أو الضَّرْبَ عليَّ، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أفلا أعتقها؟ قال: اتَّينِي بها، فأتيتها بها، فقال لها: أين اللهُ؟ أي: أين المعبودُ المُستحقُّ الموصوفُ بصفاتِ الكمالِ؟ قالت: في السَّماءِ، قال: مَنْ أنا؟ قالت: أنتَ رسولُ اللهِ، قال: أعتقها؛ فإنَّها مؤمنةٌ، وما ذاك إلا لأنَّ إيمانها بأنَّ اللهُ في السَّماءِ فوق العرشِ يدلُّ على إخلاصها لله وتوحيدها لله، وأَنَّها مؤمنةٌ به سبحانه، ومؤمنةٌ برسوله محمدٍ (ﷺ).

في الحديثِ: التَّهْيُّ عن تَشْمِيتِ العاطسِ في الصَّلَاةِ. وفيه: التَّخَلُّقُ بِخُلُقِهِ (ﷺ) في الرَّفْقِ بِالْجَاهِلِ، وحُسن تعليمه، واللُّطْفِ به، وتقريبِ الصَّوَابِ إلى فهمه. وفيه: التَّهْيُّ عن إتيانِ الكُهَّانِ. وفيه: حُسنُ معاملَةِ الإسلامِ للخدمِ والإماءِ. وفيه: أَنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في السَّماءِ فوق عَرَشِهِ فوقَ جَمِيعِ الخَلْقِ سبحانه وتعالى، بائنٌ منهم، وهو - مع علوه سبحانه - معهم يَعْلِمُ كُلَّ شَيْءٍ، ويحيطُ سبحانه بِكُلِّ شَيْءٍ (١٤).

إنما بعثه الله معلما (ﷺ). وهذا المعلم المربي

الكبير - ولا أكبر منه مُعَلِّماً في البشر - ، والهادي الأُمى البصير، والرسول المبلغ المنير : هو الذي تدين لتعليمه وتربيته أُمَّمٌ كثيرة، وتُبَجِّلهُ شعوب وأقوام مختلفة في شتى أنحاء المعمورة، تُعَدُّ بمئات الملايين، تُخَضَعُ لقوله، وتسترشد بهديه، وتلتمس رضوان الله تعالى في اتباعه والافتداء به .
ومن تأمَّلَ حُسْنَ رعايته للعرب مع :

- قَسْوَةَ طِبَاعِهِمْ،
- وَشِدَّةَ حُشُونَتِهِمْ،
- وَتَنَافُرَ أُمَّزَجَتِهِمْ،
- وَكَيْفَ سَاسَهُمْ وَاحْتَمَلَ جَفَاءَهُمْ،
- وَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُمْ، إِلَى أَنْ انْقَادُوا إِلَيْهِ، وَالتَفَوْا حَوْلَهُ، وَقَاتَلُوا أَمَامَهُ وَدُونَهُ أَعَزَّ النَّاسِ عِنْدَهُمْ : آبَاءَهُمْ وَأَقَارِبَهُمْ، وَآثَرُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَهَجَرُوا فِي طَاعَتِهِ وَرِضَاةِ أَحِبَّاءِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، وَعَشِيرَتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَكَانَ كُلُّ ذَلِكَ . وَأَعْظَمَ مِنْهُ أَنَّهُ (ﷺ)، وَهُوَ لَمْ يُمَارَسِ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ، وَلَا طَالَعَ كُتُبَ الْمَاضِينَ، وَلَا أَخْبَارَ الْمُرِّيِّينَ السَّالِفِينَ ...
- من تأمل هذا تحقَّق له بنظر العقل أنه (ﷺ) هو المعلمُ الأوَّلُ، والنبى المرسل، وأنه سيِّدُ العالمين . صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه .

يقول كارليل في حال العرب : هم قومٌ يَضْرِبُونَ فِي الصَّحْرَاءِ، فَلَمَّا جَاءَهُمُ النَّبِيُّ الْعَرَبِيُّ، أَصْبَحُوا قِبْلَةَ الْأَنْظَارِ فِي الْعُلُومِ وَالْعُرْفَانِ، وَكَثُرُوا بَعْدَ الْقِلَّةِ، وَعَزَّوْا بَعْدَ الدَّلَّةِ، وَلَمْ يَمِضْ قَرْنٌ حَتَّى اسْتِضَاءَتْ أَطْرَافَ الْأَرْضِ بِعَقُولِهِمْ وَعُلُومِهِمْ .

وروى مسلم في كتاب الطلاق من «صحيحه»، في قصة تخيير النبي (ﷺ) زوجاته الشريقات رضى الله عنهن، وقد بدأ بعائشة منهن فاختارته رضى الله عنها، وَرَغِبَتْ أَنْ لَا يُخَيَّرَ غَيْرَهَا أَنَّمَا اخْتَارَتْهُ، فَقَالَ لَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ مِنْهُ وَالسَّلَامُ : «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعْتَنّاً وَلَا مُتَعْتَنّاً، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّماً مَيْسِراً» (٢) .
المعنتُ : الذي يُوقِعُ غَيْرَهُ فِي الْعَنْتِ، وَالْعَنْتُ لَهُ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ، وَالْمُنَاسِبُ مِنْهَا هُنَا الْمَشَقَّةُ، وَالْأَذَى . وَالْمُتَعْنَتُ : هُوَ الَّذِي يَطْلُبُ زَلَّةَ الْآخِرِ وَأَذَاهُ .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : وفي إجماله (ﷺ) وعدم مصارحته ومواجهته لعائشة بالزجر، إشعار بأن من دقائق صناعة التعليم أن يَرْجُرَ الْمُعَلِّمُ : الْمُتَعَلِّمَ عَنِ سُوءِ الْأَخْلَاقِ، بِاللُّطْفِ وَالتَّعْرِيفِ مَا أَمَكُنْ، مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ، وَبَطْرِيقِ الرَّحْمَةِ مِنْ غَيْرِ تَوْبِيخٍ ، فَإِنَّ التَّصْرِيحَ يَهْتِكُ حِجَابَ الْهَيْبَةِ، وَيُورِثُ الْجُرْأَةَ عَلَى الْهَجُومِ بِالْخِلَافِ، وَيُهَيِّجُ الْحِرْصَ عَلَى الْإِصْرَارِ . أفاده المناوي في «فيض القدير» ٢ : ٥٧٣ .

شهادة التاريخ بكمال شخصية الرسول (ﷺ) التعليمية

وكذلك أثبت التاريخ أن رسول الله (ﷺ) كان معلماً وأي معلم ؟ فنظرة يسيرة إلى ما كانت عليه البشرية قبل رسول الله (ﷺ)، وإلى ما آلت إليه البشريَّة بعد رسالته، تعطينا أوضح شاهد ودليل على ثبوت ذلك .
وإذا لاحظنا النماذج المعلمة الهادية من النوع الإنساني، التي شاهدتها البشرية بعد الرسول المعلم (ﷺ) رأيناها تدل أقوى الدلالة على عظم هذا المعلم المربي الكبير، الذي تتقاصر أمامه أسماء كل الكبار الذين عُرفوا وذُكروا في عالم التعليم والتربية وتاريخهما .

فأي معلم من المرابين تخرج على يديه عدد أوفر وأهدى من هذا الرسول الكريم، الذي تخرّج به هؤلاء الأصحاب والأتباع؟ فكيف كانوا قبله؟ وكيف صاروا بعده؟! إن كل واحد من هؤلاء الأصحاب دليل ناطق على عظم هذا المعلم المرابي الفريد الأوحد. وهذا يُذكرنا بكلمة

حضه على محو العامية وتحذيره من الفتور في التعليم والتعلم

ولا غرابة أن يتخرّج على يديه (ﷺ) هذا العدد بهذا الحجم الغفير من الناس في فترة وجيزة من الزمن، فإنه قد سلّك (ﷺ) - مسلك التعليم الجماعي المستنفر، ودفعهم إلى محو العامية دفعاً، وحضهم على ذلك وندبهم إليه، وحذرهم من الفتور فيه تحذيراً شديداً.

ولذلك أقبل أولئك الناس يتلقون العلم، ويتفقهون في الدين، ويُعلّم بعضهم بعضاً، ويتعلّم بعضهم من بعض، حتى أزالوا العامية عنهم في وقت قصير عاجل (١٥).

اللهم اجعلنا من أهل البذل والعطاء، ووقفنا لعمل صالح يبقى بعد وفاتنا. وصلوا وسلموا علي من أمرتم بالصلاة والسلام عليه، فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (الأحزاب: ٥٦). أيها الأخوة المؤمنون: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه ونستهديه، نتوكّل عليه، ونُثني عليه الخير كله، نشكره ولا نكفره، ونخلع ونترك من يفجره، نرجو رحمته ونخشى عذابه. ونَدعوه على الدوام، ونرجوه على الدوام، ونَتعلّق بجماله على الدوام. فاللهم يا من لا تراه في الدنيا العيون، ولا تُخالطه الطُنون، ولا يصفه الواصفون. وأشهد ألا إله إلا الله، وأن سيدنا محمداً رسول الله، والصلاة والسلام الأتمّان الأكمّان، الأشرّفان الأنوران، الأعطران الأزهران؛ على من جمعت كل الكمالات فيه.. وعلى آله وصحبه وتابعيه. عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله.. يقول الحق (تبارك وتعالى): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (آل عمران: ١٠٢). أما بعد يا عباد الله...

قصص تربوية وتعليمية ملهمة

قراءة في دراسة في استراتيجياته التربوية والتعليمية

لم يتزَيّن التاريخ الإنساني المديد بأحدٍ أعلم ولا أحكم من سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ فقد جمع إلى سعة العلم، وبديع الفهم، وفنون المعرفة؛ حسن الخلق، ولطف التعامل، والرفق في التربية والتعليم، والتواضع للمتعلّمين.

ولما كانت رسالة الإسلام عالمية وخاتمة للرسالات وجاءت للدنيا كلها، فقد كانت أساليب النبي العظيم، وطرقه في التربية، والتعليم، والدعوة، والإرشاد، والتهذيب؛ هي الأخرى عالمية تُناسب عالمية الرسالة والرسول وخاتميتها، وتتسق مع صلاحيتها لكل زمان ومكان وحال.

ولقد حرصَ النبيُّ العظيم (ﷺ) على الاهتمام بشتى عناصرِ العمليَّةِ التَّربويَّةِ والتَّعليميَّةِ: المتعلم، والمعلم، والرسالة، والطرائق، والوسائط، والأنشطة، والبيئة التعليمية المحفزة... وكانت إشاراتُه بمكانةِ طالبِ العلمِ والعلماء بمثابة رَفَعِ الدافعيَّةِ لديهما، والإشادة بصنيعيهما.

قال (ﷺ): (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحَيَاتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ)^(١٦).

سبق نبوي تربوي مبكر:

سبقَ النبيُّ (ﷺ) العالمَ والحضارات في استخدام أرقى استراتيجياتِ التعليم، وأفضل طُرُقِه، وتطبيقها قبلَ العالم بمئات السنين، ولم لا وهو الذي أرسله اللهُ (تعالى) بدستور دساتير التربية الرشيّدة؛ وهو الوحي الشريف (القرآن العظيم - والسنة المشرفة).

ولقد منحهُ اللهُ فهما عميقًا بطبيعة النفس البشرية وظروف الناس وأحوالهم المختلفة، فكان يراعي قدراتهم، ومواهبهم، وإمكاناتهم، ومواقفهم وحاجاتهم النفسية والاجتماعية... ومن ثم يصوغ خطابه وأسلوبه بما يتناسب مع كل فرد أو مجموعة، حتى يكون التعليم والتربية عملية فعّالة ومؤثرة ومثمرة، وبانية...

فاعتمد (ﷺ) في منهجه التطبيقي منهجيات التربية الرشيّدة، وأساليبها المتنوعة والمبتكرة، والتي يصفها الباحثون اليوم بأنها: "أساليب حديثة وفعّالة"، فكان نهجه جامعًا بين العلم والإيمان، العمل والإتقان، الرحمة والجدية، فلا يُغفل جانب اللطف والرفق في التعامل مع النفوس، وفي الوقت نفسه يُحافظ على الحزم والانضباط عند الضرورة. ومن أبرز هذه الأساليب:

١. رفع الدافعية لدى المتعلم: فكان (ﷺ) يحفز أصحابه، ويذكرهم بفضل العلم، والعمل الصالح لتحفيزهم على التعلم المستمر، قال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...) (المجادلة: ١١).
٢. مراعاة الوقت المناسب والظرف والمكان المناسبين للتعلم: فقد كان (ﷺ) يختار الوقت المناسب، وكذا الظرف والمكان المناسبين للتعليم والتربية وتوجيه النصائح.
٣. مراعاة تنوع البيئات: كان (ﷺ) يُعلّم الصحابة في المسجد، وفي السفر، وفي البيوت، ويصوغ أسلوبه حسب مقتضيات الموقف وحال الإنسان وعلى حسب الظروف والسياق.
٤. مراعاة اختلاف قدرات الناس: كان يُعلّم الكبير والصغير، القوي والضعيف، الرجل والمرأة، فمثلاً كان ييسر المفاهيم لعبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) حين كان صغيراً، ويعطي تفصيلات أعمق وأوسع للصحابة الكبار.
٥. تفريد التعليم: فالبشر ليسوا على نمط فكري واحد، بل إن كل شخص كان له أسلوب، فقد كان يواصي المرأة بالرفق، ويشد على الرجل بالنصيحة المباشرة، ويخاطب الأطفال بالقصص وبما يناسب عقولهم وفهومهم.

ومن أساليبه التربوية الفريدة:

- **التربية بالرفق:** ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث مع الأعرابي الذي بال في المسجد؛ إذ لم يوبخه النبي (ﷺ)، بل وجَّهه برفق، وأمر الصحابة باللين معه، فكان في ذلك درسًا بليغًا يبين أن الرفق أعمق أثرًا في تقويم السلوك من الشدة والعنف.
- **التربية بالتواضع:** فقد كان النبي (ﷺ) يجالس الصغير والكبير على حدٍ سواء، لا يستعلي على أحد، بل يشاركهم مجالسهم، ويأنس بهم، ويؤنسهم، ويُشعر كلَّ من يجلس معه بالقرب والاهتمام، فكانت التربية بالتواضع درسًا بليغًا، وأثمرت ثمراتٍ عظيمة في النفوس والسلوك...
- **التربية بالحوار الهادئ المقنع:** فقد كان النبي (ﷺ) يحاور الناس بالحجة والبرهان، ويعتمد أسلوب الشورى والمناقشة والحوار الهادئ الهادف، موضحًا لهم الحقائق بأسلوب لطيف، فيرسخ المعنى في نفوسهم، ويجعلهم يقتنعون بالحق عن قناعة.
- **التربية بالحب:** فقد كان النبي (ﷺ) يُظهر محبته للصحابة، فيدعمهم في مهامهم، ويثني عليهم، ويدعو لهم، وكان كل واحدٍ منهم محل عناية خاصة منه، فكان للحب أثره العميق في غرس الثقة والطمأنينة في قلوبهم.
- **التربية بحسن المعاملة والرحمة:** كان النبي (ﷺ) يعامل الناس عمومًا، والضعفاء واليتامى والصغار خصوصًا بغاية الحنان والعطف، فيحتويهم برحمته، ويغرس في نفوسهم الشعور بالأمان، ويحفزهم على التعلم والعمل، فكانت أبلغ وسائل التربية وأعمقها أثرًا.
- **التربية بالتشبيهات اللطيفة:** فقد استخدم النبي (ﷺ) الأسلوب التصويري المؤثر، فمثلاً: شبَّه المسلم بالنخلة، لما فيها من ثباتٍ، وعطاءٍ، وخيرٍ دائم؛ ليقرب المعنى إلى الأذهان، ويغرس القيم في القلوب ببيان بليغ.
- **التربية بالمداعية:** فقد كان النبي (ﷺ) يلاطف الصغار عمومًا، ويلعب الحسن والحسين (رضي الله عنهما) خصوصًا، ليعلمنا الرحمة، ويغرس في نفوس الصغار المعاني التربوية بطريقة مريحة محبة، تربطهم به وبالرسالة التربوية المقصودة.
- **التربية بتناسق العبارات والسجع الحسن:** وهو أسلوب نبوي بليغ، ظهرت أمثلته كثيرًا، حيث كان كلامه (ﷺ) موزونًا سلسًا، يسهل حفظه وفهمه وترديده، ومن ذلك قوله (ﷺ): (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) (١٧).
- **التربية بالتمثيل والصورة الجميلة:** كان النبي (ﷺ) (عليه الصلاة والسلام) يضرب الأمثال العملية المؤثرة، ويقدم الصور البلاغية الجميلة، لتقريب المعاني إلى الأذهان، وتثبيتها في القلوب.
- **التربية بالاستفهام وإثارة الانتباه:** كان يسأل الصحابة، أسئلة متنوعة، ومن ذلك، قوله (ﷺ): (أَتَدْرُونَ مَنْ المُفْلِسُ) (١٨)؛ ليشير الاهتمام والتفكير والمشاركة.
- **التربية بالوسيلة التعليمية:** استخدم أشياء من الحياة اليومية، مثل: العود من الخشب،... لتقريب المعنى وتثبيته.
- **التربية باغتنام المناسبة:** ومن ذلك أنه (ﷺ) لما رأى غلامًا يأكل من كل جوانب الصحفة، استثمر الفرصة وعلمه، وعلم المسلمين من خلاله... فعن عمر بن أبي سلمة (رضي الله عنه)، قال: "كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسولِ اللَّهِ (ﷺ)، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسولُ اللَّهِ (ﷺ): (يا غُلَامُ، سَمَّ اللَّهُ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ. (١٩) فكان الموقف العملي مناسبة لغرس آداب الطعام في نفس الغلام، وفي عموم جماهير الأمة...

(١٧) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

(١٨) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، والترمذي، وأحمد واللفظ له.

(١٩) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

• التربية بالقصة: ومن ذلك:

- **قصة** الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فكانت درساً بليغاً في التوسل إلى الله (تعالى) بالعمل الصالح.
 - **وقصة** الرجل الذي قتل مائة نفس، والتي تدل على أن باب التوبة مفتوح مهما عظمت الذنوب ما عدا الشرك.
 - **وقصة** أصحاب الغار، التي تُجسد قيمة الصدق والإخلاص والأخوة والشجاعة والشهامة في الشدائد.
 - **وقصة** أصحاب الأخدود، التي تغرس معنى الثبات على العقيدة أمام الطغيان.
 - **وقصة** جريج العابد، التي تبين أثر برّ الوالدين ومقام الاستجابة لدعائهما.
 - **وقصة** الرجل الأبرص والأقرع والأعمى، التي تؤكد أن شكر النعمة سببٌ لدوامها.
 - **وقصة** المرأة التي حبست القطة، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، فاستحقت العذاب.
 - **وقصة** الرجل الذي سقى كلباً، فغفر الله له وشكر له وأدخله الجنة...
- وغيرها من القصص التي جسدت المنهج النبوي في التربية والتعليم والدعوة والتهذيب.

- **التربية بتغيير الهيئة:** فقد كان النبي (ﷺ) يغيّر من هيئة جسده، وتعبيرات وجهه، وينوّع في نبرات صوته، فيرفع صوته أحياناً ويخفضه أحياناً أخرى بحسب الموقف، ليحدث التأثير النفسي المطلوب، ويشد انتباه السامعين، فيرسخ المعنى في قلوبهم وعقولهم ووجدانهم.
- **التربية بالتكرار:** هو أسلوب نبوي فعّال، إذ كان النبي (ﷺ) يكرّر الكلمة أو العبارة حتى ترسخ في النفوس، كما في وصيته الجامعة: «لا تغضب»، التي كرّرها مراراً لتؤكد أهمية كظم الغيظ وضبط النفس.
- **التربية بإظهار الغضب والانفعال عند الحاجة:** فحين طلب أحد الصحابة الشفاعة في حدود الله (تعالى)، أظهر جدية الموقف بالغضب الرمزي؛ لبيّن خطورة الموقف، ويغرس في نفوسهم عظم المخالفة، فيكون ذلك أبلغ في التربية والتعليم من مجرد القول الهادئ.
- **التربية بإجابة السائل بما يناسب إمكاناته العقلية:** هو منهج نبوي رفيع، حيث كان النبي (ﷺ) يجيب كل سائل بما يلائم إدراكه وفهمه ومستواه الفكري، فيقرّب المعنى للصحابة، ويسرّه للأعراب، ويوسّعه لأهل الحضر وأهل الخبرة، فكانت إجاباته تتنوع بحسب حال السامع، مما جعل التعليم أكثر رسوخاً وأعمق أثراً.
- **التربية بالتخول (التعهد بالموعظة):** حيث كان يختار الوقت المناسب للتربية والتعليم والشرح والبيان، والمدة المناسبة (تقصيراً أو تطويلاً) للدرس.
- **التربية بالقُدوة** (٢٠): فقد كان (ﷺ) قدوةً ومثالاً ونبراساً في كل شيء، ومع كل الناس، وفي كل حال، فالتربية بالقُدوة أعمق أثراً من مجرد الكلام.

• نموذج من التربية النبوية:

كان النبي (ﷺ) (عليه الصلاة والسلام) يراعى الفروق الفردية بين الناس، ويُرَاعَى حالَ السائل، وطبيعة بيئته، ونمط شخصيته، وطبيعة تكوينه وثقافته، وما يصلح له، وما يصلح به، وما يُصلح... انظر للمثالين التاليين، السؤال واحد، بيد أن الإجابة مختلفة:

- ذهب أبو ذرّ الغفاري (رضي الله عنه) للنبي (ﷺ) وقال له: **أوصني يا رسول الله**، فقال له النبي العظيم: **(أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بحُلُقٍ حسنٍ)** (٢١).

(٢٠) راجع ذلك مفصلاً في: موسوعة السيرة النبوية في ثوبها الجديد (٢): السيرة النبوية اليسيرة، للدكتور ناصر بن مسفر الزهراني، مكة المكرمة: أوقاف السلام، الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ، ص ٧٩٠-٧٩٨.

(٢١) أخرجه شعيب الأرنؤوط في تخريج المسند برقم ٢١٤٠٣ وهو: حسن لغيره.

• وجاءه رجلٌ فقال **أوصني يا رسول الله، فقال: (لا تَغْضَبُ).** فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: **(لا تَغْضَبُ)** (٢٢).
وهنا أجاب النبي (ﷺ) بإجابتين مختلفتين، على السؤال نفسه، مراعاة لحال السائل وبيئته وطبيعته... إلخ، ففي إجابته على الأول قَدَّمَ له ثلاثيةً بانيةً للإيمان، والقيم، والتعايش...
وفي إجابته على الثاني استخدم النبي (ﷺ) التعليم بالتكرار؛ نظرًا لخطورة هذه القضية؛ ذلك أن الغضب قد يؤدي إلى مشكلات، وأزمات؛ لذلك وهو يُعلم أصحابه والمسلمين من بعده كان حريصًا على تعليمهم وتدريبهم على كظم الغيظ، وعلى مجاهدة النفس وضبطها - فهي أشد من مجاهدة العدو - وعلى البعد عن الغضب... فعن أبي هريرة (رضي الله عنه): **أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) قَالَ: (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)** (٢٣).
فلا تظنوا أيها الناس أن الرجل القوي، هو ذلكم الذي يتمتع بقوةً بدنيةً كبيرةً يستطيع بها أن يصرع الآخرين، كلا؛ ولكنه الرجل القوي في إرادته، القوي في رحمته، القوي في حكمته، النبيل في تصرفاته وفي الحفاظ على علاقاته، المتحلي بأخلاق النبوة، القادر على التحكم في نفسه عند الغضب وعند المشكلات والملامات والأزمات، الحليم الكاظم غيظه، المانع نفسه عن إيذاء الناس.

ومن ثم فإن مقاومة الغضب وامتلاك النفس عند وقوعه تعد من فضائل الأعمال الصالحة التي يثاب عليها الإنسان. وهنا تأتي أهمية التربية على كظم الغيظ، ومن ثم المسارعة إلى مغفرة الله بمقوماتها الواردة في قول الحق (سبحانه وتعالى): **(وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ فَاَسْتَغْفِرُوا لِمَا فَعَلُوا وَعَلَىٰ مَا فَعَلُوا هُمْ وَعَلَمُونَ. أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۗ وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)** (آل عمران: ١٣٣-١٣٦).

أهمية السؤال في التربية والتعليم:

هناك أساليب وطرائق واستراتيجيات تربوية متعددة ومتنوعة، -وهو علم كبير- ولكل منها استخدام باجراءات، ومن بينها فن السؤال ومردوده التربوي... والسؤال أيها القارئ الكريم يُنمّي الفضول العلمي، ويحفّز الشخص على حب الاستطلاع واكتشاف المجهول ومعرفة الجديد، كما يساعده على بناء الثقة بين المرء والمرء، إذ يعطي المتعلم إحساسًا بأن صوته مسموع وأنه شريك فعال في العملية التربوية.

والسؤال يُعلّم التفكير النقدي، فيدرّب العقل على التمييز بين الصواب والخطأ، والدليل والشبهة، ويفتح أبواب الحوار بين الأجيال، فيربط التلميذ بالمعلم والابن بالوالد، ويجعل عملية التربية حوارية وليست أوامرية...
والنفس البشرية **تألف** من الأوامر، **وتألف** الحوار والتحفيز والمشاركة، وكلها مكنونة في منهجية السؤال.

كما يربّي فن السؤال على **الدقة والوضوح**؛ لأن صياغة السؤال الصحيح تعد نصف الطريق نحو الإجابة الصحيحة، ويصبح وسيلة للتقويم الذاتي.

والسؤال قد يكون وسيلة للإصلاح، والإنسان في رحلة الإصلاح الداخلي يسأل نفسه: "هل أنا على صواب؟ هل قصرت؟".

والسؤال أيضًا يُنمّي مهارة البحث العلمي عبر التوجه للقراءة والتدبر والتأمل والتحليل والتركيب وإعمال العقل والمقارنة والاستدلال... إلخ.

(٢٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

(٢٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

السؤال أداة أساسية لتنمية العقل والفكر، فهو يفتح أبواب المعرفة على مصراعها، ويحوّل التعلم من تلقين سلبي إلى حوار وتفاعل... ومن خلاله أيضاً يتعلم المتعلم ويتدرب عملياً على التواضع والاعتماد على التفكير، ويزداد فضوله المعرفي، وأيضا يتدرب عقله على التمييز بين الصواب والخطأ.

وفي حياتنا اليومية، سواء في المدرسة أو الأسرة أو مكان العمل، يساعد السؤال على تثبيت المعلومات وفهمها بعمق، ويجعل النقاش والحوار وسيلة تربوية فعّالة، ويحفّز المتعلم على المشاركة بدلاً من التلقي السلبي. فمثلاً، عندما يسأل الأب طفله: "كيف يمكننا توفير الماء في المنزل؟"، وهنا لا يكفي الطفل بالإجابة بالهزّة، بل إنه يفكر، ويتأمل، ويقترح حلولاً، ويتعلّم في الوقت نفسه مسؤولية المشاركة، وتنمية دوره في حل المشكلات. كما يكشف السؤال مستوى الفهم ويعزز مهارة البحث، ويبني الثقة بين المربي والمتربي، وهو أيضاً طريق لبناء الإيمان، قال تعالى: **(فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)** (النحل: ٤٣)، فأهل الذكر في الطب هم الأطباء، وفي الفقه هم الفقهاء، ولا يُعني أحد التخصصين عن الآخر؛ فلا الطب يُعني عن الفقه، ولا الفقه يُعني عن الطب. غير أنّ هذه العلوم الكونية والتجريبية والإنسانية - عند التأمل فيها - فإنها تُعمّق الإيمان، فالطبيب - على سبيل المثال - حين يُشاهد بدقة وإبداع وإتقان وإحكام وإعجاز خلق الجهاز الدوري، والجهاز الهضمي، والجهاز العصبي، والجهاز التنفسي، وكيفية تناغم أجهزة الجسد المختلفة مع بعضها البعض: من قلب، وكبد، وكلى، وبنكرياس، وورثتين... إلخ، يرى عظمة الإعجاز الإلهي المبهّر والمدهش والمذهل، فيزداد إيمانه، ويمكّن أن يُنشر هذا المعنى في كل مكان.

فن السؤال في التربية النبوية ومردوده الإيجابي:

لقد كان سيّدنا محمدٌ (ﷺ) المعلّم الأول لحضارة المسلمين، وإذا أمعنا النظر في سيرته العطرة، وجدنا أن من أساليبه التربوية: طرح الأسئلة على أصحابه أو استقبالها منهم؛ إذ لم تكن أسئلته مجرد الاستفهام، بل كانت مدخلاً رقيقاً لتحريك العقول، وإشعال القلوب، وإشغال الذهن بقضية السؤال، وإيصال المعاني والمضامين والرسائل التربوية في صورة أعمق أثراً، وأقرب إلى النفس، وأثبت في الوجدان...

لقد اعتمد النبي (ﷺ) على الأسلوب الحواري القائم على السؤال والجواب، فجاء منهجه موافقاً للفترة الإنسانية، ووسيلة فعّالة لترسيخ المفاهيم، وتنمية الفكر، وإشراك المتعلّمين في عملية الفهم والبناء، حتى صارت كلماته دروساً حيّة تتجاوز حدود الزمان والمكان، وستظل نابضة بالإمداد والعتاء والتوجيه للمسلمين وغيرهم إلى يوم الدين.. ولقد استهدف النبي (ﷺ) من طرح الأسئلة واستخدام هذه المنهجية بكثرة، تحقيق عدد من الأهداف التربوية، منها:

● **إثارة الانتباه:** ذلك لأن السؤال - كما أشرنا - يلفت النظر، ويُسجّل العقل، ويُسّعل جذوة الفكر، ومن ثمّ يمهّد الشخص للجواب السديد.

● **تحريك التفكير:** يدفع السامع للبحث عن المعنى، بجدية وهمّة وإصرار، بدلاً من التلقين.

● **ترسيخ المعلومة، والإسعاف في استدعائها:** فما يفهم عبر سؤال وحوار ونقاش، يبقى أثره أطول في الذهن، وأسرع وأسعف في الاستدعاء عند الحاجة.

● **تصحيح المفاهيم:** يتيح كشف الأخطاء المنتشرة ثم إعادة بناء التصور الصحيح في الذهن.

● **مشاركة المتعلم:** فيشعر المتعلّم أنه شريكٌ حقيقي في العملية التربوية، لا مجرد فردٍ عادي يجلس في صفوف المتلقين، فالإنسان بطبعه إذا سمع سؤالاً توقّف ذهنه ليفكر: ما الجواب؟ حتى إذا جاءه البيان، ترسّخ المعنى في عقله وقلبه معا.

➤ أما عن أنماط الأسئلة النبوية، فكانت متنوعة ومتعددة، منها: (أسئلة تعريفية، وثانية تفويجية، وثالثة تنبيهية، ورابعة لاستشارة للعقل وشحد الفكر، وخامسة أسئلة عملية حياتية،....). والأمثلة على ذلك كثيرة في كتب السنة والسيرة.

اللهم احفظ مصر شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، طولها وعرضها وعمقها، بحارها وسماؤها ونيلها، ووفق يا ربنا قيادتها وجيشها وأمنها وأزهرها الشريف، وعلماءها، واحفظ شعبها، وبلاد المحبين يا رب العالمين.
اللهم اشف مرضانا وارحم موتانا اللهم طهر قلوبنا من الكبر، وزينها بالتواضع، اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
(... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (النمل: ١٩)، (.. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ...) (الأعراف: ٤٣) ... اللهم تقبل هذا العمل من الجميع... وبالله (تعالى) التوفيق

خادم الدعوة والدعاة د/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

والحاصل على المركز الأول على مستوى الجمهورية في خدمة الفقه والدعوة (وقف الفنجري ٢٠٢٢م)

المدير التنفيذي السابق لرابطة الجامعات الإسلامية- عضو نقابة اتحاد كتّاب مصر

واتس أب: ٠١١٢٢٢٢٥١١٥ بريد إلكتروني: drsoliman5555@gmail.com

تم تدشين صفحة #معارج الدعوة للدكتور أحمد علي سليمان. للإسهام في إثراء العمل الدعوي والدعاة يرجى متابعتها ونشرها

<https://www.facebook.com/share/d&mibextid=LQQJ?EDacEw/١u١١>